ذوقوا فتذكروا

نشرت مجلة ساينس ديجست Science Digest الاميركية في عددها الصادر في شهر مارس الماضي مقالاً بعنوان : « الاسترخاء طريق المصريين في الحياة » لكتفي بترجمة فقرات منه والتعليق عليها، فان ترجمة ذلك المقال بحروفه أمرٌ يجر الى أشياء تتحرز من الخوض فيها . قال الكاتب :

« منذ آلاف من السنين ، وضع المصريون مشروعاً حكومياً لتشييد المباني ، فأنتج ذلك المشروع الاهرام وأبا الهول . وإذا خدم المصري صديقاً مدفوعاً لذلك بدافع الكرم ، فقد لا ينوّع عن أن يطلب ما يسميه البقشيش . وليس هذا لانه في الحقيقة يريد بقشيشاً ، بل لأنه يريد أن يمد العلاقة لصاحبه عنايةَ كلام يستهويه به » .

« ان احتقار المصري للمال يظهر جليّاً من أسلوبه في التجارة . فاذا فرض ان رجلاً طماعاً أخذ يناجر ، فانه يجتهد أولاً في أن يقع على شيء يحتاج اليه الناس ويشتريه بأقل مما يساوي ، ثم يبيعه بأكثر مما اشتراه به ، وليس المصري كذلك . فان المصري إذا اراد الاتجار يعمل بطريقة مصرية فذة . فيجمع قليلاً من زهارات الغاب القديمة ويضمها بعضها الى بعض أو يحصل على عناكب مصنوعة من الجص أو زجاجة فارغة من زجاجات الوسكي يضع فيها سمكات ويمشي بها في الطرق العامة باحثاً عمن يبيعها اليه » .

« لا شيء حقير عند المصري ، فلا يمن فيه تأملاً واستبصاراً . فانه يقف أحقاباً متطاولة ليقرر مأية قدميه يبدأ المشي . وقد يظل ساعات جالساً ليقرر هل يقوم » .

« يتكلم المصريون لغة لا يشاركهم فيها أحد . ويدل على جمالها ذلك المدى الواسع الذي يستعملونها فيه . فانهم يتكلمون بغير توقف وبحماسة . واللغة المصرية المكتوبة أشبه شيء بخط محسن من الاختزال، وقد نشأت بالطبع مع التراعنة . ويحب المصريون الصور المتحركة الأميركية ومسرحيات وليم شكسبير ولاسيما عُطيل » . (وقد خص الكاتب مسرحية عُطيل بالذكر لأن بطلها من البربر وفيها تصوير لناحية الشهوة الجنسية وحب الانتقام والفتك)

ولا أدل على جهل ذلك الكاتب من قوله ان المصريين كالألمانيين ، يعتقدون ان تخشيش الوجه يدل على حسن الخلق ، فيخشنون وجوههم

« ان صداقة المصريين تمتد الى جميع الحيوانات كبيرة وصغيرة ، من الجمل الى الصرصور . ويجدون في الحمار وسيلة أمثل من السيارات للجولان في أنحاء بلادهم »

« ان هذه الجمير هي من مخلوقات هذه الأمة الثوارثة . فان حماراً مصريًا من الصنف الجيد قد يحمل مصريًا أثقل منهُ وزناً . فاذا ركب أب مصري حماره جلس على مؤخرة ظهره وبقية الأسرة من أمامه »

« ان المعزى ذائعة في مصر . وقد تعيش في المدن أو في الأقاليم في داخل البيوت أو في خارجها ، بمقتضى حالة الجو . وقد يعامل المصريون حتى الحشرات ، معاملة القديس فرنسيس للعصافير » .

« يضني القاهرة قطعان من البواشق الأليفة تعيش على كرم الناس . والعصافير تجثم على الموائد وتقتات بفتاتها ، وللمصريين عيون سود ، ولون يختلف من لون القهوة المزوجة باللبن الى لون الفحم الحجري » .

« لعله بانه يعامل أناسي فيهم رصانة وتعقل ، تجد ان الذباب المصري آلف من غيره من الذباب في أماكن أخرى . فبدلاً من أن يطير مؤزًا لاقل سبب ، يشعر الذباب المصري أنه في بيته ، إذا ما وقف على جبهة واجتهد في أن يبني عشه هنالك » ...

* * *

إذا قيل هذا عن مصر في هذا العصر ، فانه يدل على ان الكاتب وأمثاله إنما يستطون شهوة الجمهور الضال في أميركا ليكسبوا المال من أخس وجوه الكسب . فان مصر التي أنشأت أقدم مدنيَّة عرفها العالم وكانت ضفاف نيلها مرصعة بالمدن والهياكل والمعابد عند ما كانت القارة الأميركية خواء خلاء يسكنها البهور والقاطور والبوما ، تتقبل هذه الهدية من ذلك الكاتب كما يتقبل البحر الواسع الجيفة المنتنة . فكم من جيفة ابتلعها البحر ، وكم من جيف سوف يبتلعها على مرّ الزمن ، فلم تكدّر من صفوه ولم تغيّر من طيبه.

إن الوجوه التي يعشش فيها الذباب في مصر لأشرف الف مرة ومرة ، من تلك الوجوه التي نعرفها في شيكاغو وعصابات شيكاغو . من وجوه آل كابوني وديلنجر وأمثالهما من عصابات الكوكلوكس كلان . إن هذه الوجوه وجوه بريئة ، والجباه التي يقف عليها الذباب لا تمر بها ذكريات كذكريات استئصال الهنود الحمر وذكريات حروب الاستئصال التي شنها أهل جنوب أميركا على سكان أميركا الأصليين . واذا أردت أيها القارىء ان تعرف شيئاً من

قال الله . لا تدري أصحيح ما نعلم من طبائع الاشياء ، أم
عقدة التربية نحن بيننا وبين الواقع حجاب من الاصلاح الفظي ، وان وسائطنا
لادراك الحقائق ليست إلا حواسنا غير الكاملة المشوبة في كل لحظة.
لكن ما علم منطبق على الواقع من تلك المعلومات . فهل نحن نعلم كثيراً من
خواص الاجسام التي بين أيدينا لتخضعها موضوعات التحليل والتركيب والمشاهدات ؟
وهل نحن نعلم طبائع ما فيها من القوى ذات الآثار المادية اليومية والمستمرة في حياتنا
الدنيا حتى نستطيع أن نكيف نفس الطفل ، تلك النفس الطيعة المتمردة ، وذلك
العقل الوثاب الذي لا يقر على شيء ، مع انا لا نستطيع مشاهدتنا أن نضبط قانون
ثابتاً لحركات الطفل العادية . فانه ينطلق في البيت وفي الأرض من هنا الى هناك ، ولو
شددنا وثاقه لظل تسعى أطرافه في كل الاتجاهات .

ليس معنى ذلك أن نكف عن البحث في قوانين التربية ونيأس من الوصول
الى اكتشاف الغرض الاخير ، والوسائل المؤدية لهذا الغرض تتحمل على الأقل
الرجل . ذلك ما لا نريد ، وفي ظننا لو أردنا لا استطعنا تنفيذ تلك الارادة .
لان هذا الشوق الى الكمال يظهر عليه انه بعض طبائعنا . ولكننا نريد بما نقول الى
ان التربية الانسانية عقدة ما فتئنا حتى الى الآن ، فلا بد أن يكون الخوض فيها
مصحوباً بالخاسية بعض الشيء . ويكون تقرير خير الطرائق غلبة الظن لا بالصورة
القطعية .

احمد لطفي السيد باشا

نقلا عن الجزء الثاني من « المنتخبات » هدية المقتطف الثمينة

تاريخ هذه الوجوه التي لا يعشش فيها الذباب ، فارجع الى كتاب « سياحة حول الأرض » للعلامة دروين لتعرف كيف يكون فن القتل وفن الاعناء ندع أبرد من أن يمس به الذباب الذي لا يعشش في وجوه أولئك .

نعم اننا لم نخترع المدفع الرشاش ولا الباخرة الحربية ولا القنابل السامة . وخير لنا ان يعشش الذباب في وجوهنا من أن يخترع لنا التاريخ ذباباً خاصاً يرصع به جباهنا تلقاء تلك المخترعات ، أشبه بذاك الذي سيخترعه لأولئك الذين أشعروا مدنية صناعية مدنية ، ثم أخذوا يقوضونها ، لأن أدمغتهم لا تحتمل الذباب إذا أراد أن يعشش في وجوههم .

إن مصر والشرق العربي كله من ورائها لن تنسى حسنة تأتيها من إنسان . ولكنها لن تتجاوز عن سيئة ترمى بها . وان الامة الأميركية الحرة ، لتنظر الى أمثال هذا الكاتب نظرة استخفاف ، عالمة ان تبادل الاحترام بين الشعوب أساس المودة والاخاء وتبادل التفاهم .